

النشر الإلكتروني - مجلة الحكمة
رقم : ١٥/٦٤
تاريخ : ١١/٠٨/١٤٤٦هـ الموافق ١٠/٠٢/٢٠٢٥م

أدلة الربوبية التي ورد ذكرها في القرآن الكريم

إعداد

د. سعود بن عبدالعزيز خلف الخلف

أدلة الربوبية التي ورد ذكرها في القرآن الكريم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم وبعد :

فإن الله ﷻ قد أوجب على الإنسان عبادته وهو خالقه والمتكرم عليه بكل نعمة هو فيها ومن كرمه ولطفه أن بث أدلة ربوبيته في كونه وجعلها سهلة التناول يتعمى عنها الكافر ويزداد بها إيمان المؤمن، فتكون له نورا وخيرا ونعمة عظيمة وتكون على الكافر عمی، ويمكن إذا أراد الله ﷻ للكافر الهدى ان يبصرها لسهولتها ووضوحها وقربها من كل من أراد ان يتبصر ولأهمية الإقرار بالربوبية وأنها من الموضوعات التي اعتنى الله ﷻ بتقريرها في كتابه أحببت أن أكتب بحثا في موضوع تلك الدلائل وسميته (أدلة الربوبية في القرآن الكريم) وأسأل الله ﷻ التوفيق والسداد. وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم .

خطة البحث:

وفيها توطئة وسبعة مباحث

توطئة وفيها تعريف الأدلة لغة واصطلاحاً وتعريف الربوبية

المبحث الأول: النصوص الشرعية التي تقرر ربوبية الله ﷻ .

المبحث الثاني: الأدلة الكونية .

المبحث الثالث : البراهين العقلية .

المبحث الرابع : الفطرة وأخذ الميثاق

المبحث الخامس: الأدلة الحسية

المبحث السادس: دلالة آيات الرسل عليهم السلام

المبحث السابع: إجماع الأمم على توحيد الربوبية.

هذا وأسأل الله التوفيق والسداد وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم

توطئة: وفيها تعريف الأدلة لغة واصطلاحاً وتعريف الربوبية:

إن الربوبية هي قاعدة الألوهية وهي الأصل في الألوهية، فلا ألوهية بدون الربوبية، والإقرار لله وَحْدَهُ بالألوهية أي العبادة، هو الغاية من خلق الجن والإنس كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات].

فإذا كانت الألوهية بهذه الأهمية؛ فموجبها ومقتضاها ودليلها وهو الربوبية بنفس الدرجة من الأهمية!، فلذا كان من رحمة الله تعالى أن جعل البراهين على الربوبية قطعية ظاهرة لكل ذي عينين، لا تخفى إلا على من لم يريد أن يرى ويبصر ولم يرغب أن يلتزم بآزمها وهي الألوهية. وأصول الدلائل على الربوبية متعددة و يتفرع عن تلك الأصول مئات بل ألوف بل ما لا يمكن حصره من الأدلة إذ الأمر كما قيل:

أيا عجباً كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد؟!
ولله في كل تحريكة وتسكينة أبداً شاهد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد (١)

ويتفاوت أهل العلم ويختلفون في تصنيف تلك الأدلة ومسمياتها وهو اختلاف تنوع واختلاف في التسميات وليس اختلاف تضاد، وبعضها أدلة عامة يتفرع عنها مالا يحصى كثرة، وقبل أن ذكر الأدلة نعرف بمعنى الأدلة والربوبية والمقصود بأدلة الربوبية:

معنى الأدلة:

الأدلة لغة : جمع دليل وهو من الدلالة بالكسر والفتح. يقال دل عليه وإليه دلالة أرشد ويقال دله على الطريق ونحوه سده إليه فهو دال والمفعول مدلول عليه، والدليل المرشد جمعها أدلة. (٢)
والدليل في الاصطلاح: هو الذي يلزم من العلم به العلم بشيء آخر. (٣)

معنى الربوبية:

الربوبية لغة: مشتقة من الرب: والرب اسم من أسماء الله تعالى، ومعنى الرب في اللغة : المالك، والخالق.. والرب: المصلح للشيء.
ورب كل شيء: مالكه ومستحقه؛ وقيل: صاحبه. ويقال: فلان رب هذا الشيء أي ملكه له.

(١) شعب الإيمان للبيهقي (١/ ٢٥٤) وعزاها للشافعي وقال: يقال إنما لأبي العتاهية وعزاها غيره لغيرها.

(٢) تهذيب اللغة (١٤/ ٤٨) المعجم الوسيط (١/ ٢٩٤)

(٣) التعريفات (ص: ١٠٤) الكليات (ص: ٤٣٩)

وكل من ملك شيئاً، فهو ربه؛ والله جل ثناؤه هو الرب؛ لأنه الخالق وهو مصلح أحوال خلقه والمالك والسيد والمدبر والمربي والقيّم والمنعم^(١).

المقصود بأدلة الربوبية: هي الأدلة التي بثها الله ﷻ للدلالة على ربوبيته، وهي أدلة مبثوثة فينا وفي كل ما نراه أو نسمعه أو نعلم به .

المبحث الأول: النصوص الشرعية التي تقرر ربوبية الله ﷻ .

القرآن الكريم كتاب قد حوى سبل الهداية للحق والخير، و من أعظم ذلك تقرير التوحيد بأنواعه الثلاثة وما يتعلق بها، وما تكرر ذكره في القرآن الكريم تقرير أن الله ﷻ هو الرب وحده وليس أحد سواه؛ فهو الخالق الموجد المدبر وحده كل ذلك بنصوص جاءت متنوعة وواضحة وصريحة، ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۝ مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ ۝ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة] وقوله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝﴾ [البقرة] وقوله تعالى ﴿قُلْ أَعِزَّ اللَّهُ أَبْنَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۝﴾ [الأنعام : ١٦٤] وقوله تعالى ﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ۝﴾ [الأنبياء] وقوله تعالى ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ۝﴾ [الفرقان] وقوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝ مَلِكِ النَّاسِ ۝ إِلَهِ النَّاسِ ۝﴾ [الناس]

والآيات في هذا المعنى كثيرة جدا.

وهذا الدليل والتصريح مهم جدا في تقرير الربوبية والاستدلال لها: لأن صاحب الدعوى هو الذي يتكلم عن نفسه ادعاء، واستدلالاً وإظهاراً للواقع المطابق لصحة هذه الدعوى، كما أن ذلك مهم من وجه آخر: أنه لا يوجد من قال إنه رب العالمين سوى الله ﷻ إلا قلائل من المفترين؛ منهم فرعون، و النمرود وعلى كيفية أقل من فرعون، وقد انتقم الله منهما وأظهر خزيهما ففرعون أغرقه الله تعالى، و النمرود أظهر الله كذبه وأخزاه في محاجة إبراهيم له كما ذكر الله ذلك في سورة البقرة {٢٥٨} .

أما من عداها فدائر بين حالين:

(١) مقاييس اللغة لابن فارس (٢/ ٣٨١)، تهذيب اللغة للأزهري (١٥/ ١٢٨)، النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (٢/ ١٧٩)، مختار الصحاح (ص: ١١٦)، لسان العرب (١/ ٣٩٩).

الحالة الأولى : أن تكون دعوى من الأتباع الضالين في متبوعيههم كدعوى النصارى في المسيح عليه السلام، وكدعوى النصيرية في علي عليه السلام ونحوهم، وهي دعاوى فسادها ظاهر، كما أن أيّاً من هؤلاء لم يقل ذلك عن نفسه لا تصريحاً ولا تلميحاً وإنما هي دعاوى الأتباع فقط!.

الحالة الثانية: أن تكون دعوى مختلطة يدعيها أحد ما لنفسه -إما جنوناً من بداية الأمر أو مكابرة - فتجده يتدرج من دعوى أنه المهدي إلى المسيح إلى الرسالة ثم إما إلى الوحدة مع الإله أو أن الله نزل بصورته!، فهو يتقمص الإله أو أنه رب العالمين -تعالى الله عن ذلك- تخليطاً و تحبطاً ولكن ما أسرع ما يقصمه الله تعالى؛ وذلك مثل دعوى الباب مقدم البابية وقد أعدم في إيران، أو دعوى البهاء مقدم البهائية وقد جن آخر حياته.

فالأهمية هذا الدليل جاءت النصوص فيه صريحة وواضحة من جميع الوجوه لا لبس فيها ولا غموض. ومن أوجه أهميته؛ أنه مبطل لربوبية كل من عدا الله تعالى سواء ادعى ذلك لنفسه أم ادّعى له من غيره.

ومن وجه آخر هو مبطل لألوهية غير الله تعالى إذ إن الإله لا بد أن يكون رباً -يعني خالقاً رازقاً مدبراً- فمن لم يكن رباً لا يستحق شيئاً من معاني العبودية.

المبحث الثاني: الأدلة الكونية .

يدخل تحت هذا النوع من الأدلة كل ما يتعلق بال مخلوقات الموجودة والمحيطة بالإنسان وما يقع تحت علمه وبصره، وكذلك ما يسميه أهل العلم دليل العناية والإتقان، وسنقسم البيان لهذا الدليل إلى قسمين :

أ-دليل الخلق والإيجاد أو دليل الآيات الكونية:

من أعظم الأدلة وأوضحها دليل الخلق والإيجاد، ويسميه شيخ الإسلام دليل الآيات العيانة المشهودة أو دليل الآيات المخلوقة،^(١) وبعضهم يسميه دليل الاختراع.^(٢)

وذلك: أن الكون العجيب الفسيح العظيم، بل الإنسان نفسه وخلق العجيب وكل ما حوله هي في حقيقتها براهين واضحة، لا يمكن ألا تلفت النظر إلى وجود خالقها وموجدها، فهي موجودات تدعوا بنفسها إلى خالقها وتدل على عظمتها، وإلى ربوبيته وألوهيته ومن ناحية أخرى؛ ليس هناك من يقول إنه خالق وموجد لها سوى الله تعالى.

(١) انظر جهود شيخ الإسلام ابن تيمية في تقرير توحيد الربوبية، د. عادل العامري (٣٨٩/١).

(٢) انظر الكشف عن مناهج الدلة لابن رشد (ص: ١١٨).

لذا كرر الله ﷻ هذا الدليل الذي ينادي فيه ربنا الكريم الرحيم عباده و يدعوهم إلى النظر في دلائل الخلق في أنفسهم وما حولهم مما هو أصرح دليل على الربوبية واستحقاق الألوهية والعبادة، وهذا النوع من الأدلة هو الأكثر وروداً ضمن أنواع الأدلة القرآنية ومن ذلك:

١- قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٢﴾ [البقرة].

فهذا أول أمر وأول نهي في كتاب الله عز وجل، وهو صريح في تحديد المقدمة والنتيجة، فالمقدمة هي أننا مخلوقون من العدم نحن وآباؤنا وإن علو، وليس من البشر أحد ينكر هذا- إلا جحدة الملاحدة-، و لا نحتاج أن ندلل على هذه المقدمة فهي مقدمة الإقرار بها ضروري، أما النتيجة فهي أن الخالق الموجد هو ربنا وخالقنا والواجب عبادته وحده لا شريك له، فكما أنه هو الخالق وحده فالعبادة لا تجعل لغيره لا استقلالاً ولا شراكة.

قال الطبري (ت ٣٢١هـ) رحمه الله في معنى الآية- بعد أن بين أن المخاطبين في الآية عموم البشر ومنهم الكافرون والمنافقون فالجميع- أمرهم الله ﷻ : ((بالاستكانة، والخضوع له بالطاعة، وإفراد الربوبية له والعبادة دون الأوثان والأصنام والآلهة.

لأنه جل ذكره هو خالقهم وخالق من قبلهم من آبائهم وأجدادهم، وخالق أصنامهم وأوثانهم وألهتهم. فقال لهم جل ذكره: فالذي خلقكم وخلق آباءكم وأجدادكم وسائر الخلق غيركم، وهو يقدر على ضرركم ونفعكم - أولى بالطاعة ممن لا يقدر لكم على نفع ولا ضرر)).^(١)

٢- قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ١﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَواسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلْسَائِلِينَ ٢ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ٣ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ٤﴾ [فصلت].

فذكر الله ﷻ في هذه الآيات من عجب صنعته وخلقته وقوته وقدرته ما لا يمكن أن يدخل تحت تصور بشري، فإيجاده للأرض وما جعل فيها من الأقوات والبركات، وما خلق فيها من الجبال لتثبيتها تمهيداً لمعيشة كريمة للبشر عليها وتسخيرها لذلك، ثم جعل السماوات سبعة، وما نشاهد من ذلك هو دليل

(١) تفسير الطبري (١/ ٣٦٢).

على عظمة الخالق، وموجب للعجب ممن يكفر به ويحدد ربوبيته أو ألوهيته فلا يعبد ولا يخضع له ويعظمه!.

٣- قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنعام]

هذه الآية كسابقتها في أن المبدع الخالق لكل منظور قريب أو بعيد: هو الله عز وجل فهذه المقدمة الأولى والمقدمة الثانية: أننا مخلوقون مربوبون، والنتيجة هي: وجوب عبادته وحده لا شريك له فالمقدمتان الأولى والثانية يقر بها بنو آدم ولا ينازعون فيهما أما النتيجة فهي التي ينحرف عنها أهل الكفر ويقرها أهل الإيمان وأهل عبادة الرحمن.

والأدلة في هذا المعنى كثيرة وواضحة؛ فمن تأمل الكون أو تأمل في نفسه بل كل ما حوله سيجد في كل ذلك براهين لا يمكن أن تخطئها العين، ولا يخطئها النظر أو الفكر براهين واضحة وأدلة ظاهرة.

ب- دليل العناية:

المقصود بدليل العناية: أن هذه المخلوقات التي أوجدها الله من العدم لم ينثرها في الهواء، ولم يلقيها في الأرض بلا عناية وكفالة ورعاية؛ بل رتب معاشها، وأسبغ عليها نعمه، وصرفها ودبرها بتدبيره الرباني الحكيم كما قال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: ٧] .

وقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسْوَىٰ ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝﴾ [الأعلى] وقال تعالى على لسان موسى عليه السلام في خطابه لإمام الملاحدة معرفا بربه جل وعلا: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ۝﴾ [طه] ، وبعض أهل العلم يسمي هذا الدليل دليل الإتيان، وبعضهم يسميه دليل التخصيص.

وهذا الدليل هو أكثر الأدلة ورودا في القرآن الكريم لأنه دليل واضح على الربوبية، وهو أيضا دليل صريح على الرحمة والكرم والجود والحكمة والخبرة والإحسان وغيرها من صفات الربوبية.

ولما كان دليل العناية والإتيان متنوعا سنذكر أهم أنواعه:

أ- تسخير الأرض وشق الطرق فيها، وخلق السماء سقفاً، والنجوم زينة وعلامات، والشمس والقمر آيتين عظيمتين ينتج عنهما الليل والنهار:

إن الأرض وما فيها وكذلك النجوم والشمس والقمر في السماء إنما هي مسخرة لتحقيق مصالح البشر، وهي مرتبة ترتيباً معيناً لا تحيد عنه وملزمة بذلك، وليس لذلك فاعل إلا الله ﷻ، وقد لفت الله تبارك وتعالى نظر المكلفين إلى هذا البرهان لمعرفة عظمة الخالق ورحمته فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ۝ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝﴾ [الأنبياء]

وقال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝﴾ [الزخرف]

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۝ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَثْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ۝ تَبَصَّرُوا وَبَصَرُ الْبَاطِلِ مُنِيبٌ ۝﴾ [ق]

وقال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ آيَاتٍ لِّمَنْ حَسَنَاتٍ ۚ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّمَنْ يَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصْلَنَاهُ تَفْصِيلًا ۝﴾ [الإنشراء] .

فمن ذا خلق هذه الأجرام، ووضع وقدر لها خط سيرها وتحقيق مقاصد وجودها؟!، وهي تتحرك وتطلع وتغيب وفق قانون لا تستطيع أن تحيد عنه إلا بأمر خالقها، وهي كتلة عظيمة جدا فتحتاج إلى قانون غاية في العظمة والصرامة لتؤدي دوراً لا يختلف على كره الدهور والعصور، وهذا الأمر والضبط

والتسخير يحتاج إلى رب عظيم لا أعظم منه يخلق هذه الأجرام ويضع قوانينها ويضبط ذلك لا يتغير ولا يتبدل إلا بأمره وحكمه، فمن ذا يستطيع ذلك غير الله ﷻ؟!.

ب- إنزال المطر وإخراج الزروع والنبات وأنواع شتى من الأطعمة للإنسان والحيوان:

كل ما يرى في الأرض من الزروع والنباتات وأنواع الأطعمة النباتية والحيوانية = خلق الله وترتيبه وإنعامه على خلقه، ووجه من أوجه العناية الربانية بخلقه عموماً؛ مسلمهم وكافرهم إنهم وজনهم وكل حي ودابة على الأرض كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] ومن النصوص الدالة على الربوبية في ذلك: قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعُمُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنْ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٣١].
وقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ [٣٧] ﴿كُلُوا وَارْزُقُوا أَنْعَمَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [طه: ٥١].

ج- التوافق في الأصول والتنوع في المنتج والفروع:

إن من الدلائل التي استحث الله تبارك وتعالى البشر لتأملها والنظر بعقولهم إليها وهي من دلائل عنايته بخلقه تبارك وتعالى؛ أنه سبحانه وتعالى نوع في المنتجات ونوع في التفرعات مع أن الأصل واحد ونرى ذلك في النبات فهو يسقى بماء واحد ثم ينتج نباتات متعددة في أنواعها وطعومها وألوانها مع أنها تسقى بماء واحد!، وقد قرر الله تبارك وتعالى هذا الدليل في مواطن كثيرة ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ أَلْتَهَارًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [٢١] ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لَهَا عَلَى بَعْضِهَا عَلَى الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ١٤].

قال ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) رحمه الله في تفسير هذه الآية: ((أي: هذا الاختلاف في أجناس الثمرات والزروع، في أشكالها وألوانها، وطعومها وروائحها، وأوراقها وأزهارها، فهذا في غاية الحلاوة وذا في غاية

الحموضة، وذا في غاية المرارة وذا عفص، وهذا عذب وهذا جمع هذا وهذا، ثم يستحيل إلى طعم آخر بإذن الله تعالى.

وهذا أصفر وهذا أحمر، وهذا أبيض وهذا أسود وهذا أزرق.

وكذلك الزهورات مع أن كلها يستمد من طبيعة واحدة، وهو الماء، مع هذا الاختلاف الكبير الذي لا ينحصر ولا ينضب، ففي ذلك آيات لمن كان واعياً، وهذا من أعظم الدلالات على الفاعل المختار، الذي بقدرته فاوت بين الأشياء، وخلقها على ما يريد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(١).

وقال القرطبي (ت ٦٧١ هـ) رحمه الله بعد أن بين التفاوت بين الزروع: «وفي هذا أدل دليل على وحدانيته وعظم صمديته، والإرشاد لمن ضل عن معرفته، فإنه نبه سبحانه بقوله: "يسقى بماء واحد" على أن ذلك كله ليس إلا بمشيئته وإرادته، وأنه مقدور بقدرته، وهذا أدل دليل على بطلان القول بالطبع، إذ لو كان ذلك بالماء والتراب والفاعل له الطبيعة لما وقع الاختلاف.

وقيل: وجه الاحتجاج أنه أثبت التفاوت بين البقاع، فمن تربة عذبة، ومن تربة سبخة مع تجاورهما، وهذا أيضاً من دلالات كمال قدرته، جل وعز و تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً^(٢). فتبين للنظر في هذه الآية الباهرة دليل ظاهر على الربوبية، حيث وحد المصدر ونوع في المنتج بكيفية تصعب على الحصر، فانظر النخيل مثلاً وهي شجرة واحدة وتسقى بماء واحد وتكون في منطقة واحدة ومع ذلك تنتج أنواعاً شتى لونا وطعماً وصورة حتى عد منها نحو ٢٦٠٠ نوع^(٣).

ومن الأدلة في ذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَّكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ۖ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [طه].

ومثله في الدلالة قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ ۗ وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ، كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ۝﴾ [فاطر].

(١) تفسير ابن كثير (٤ / ٤٣٢)

(٢) تفسير القرطبي (٩ / ٢٨١).

(٣) الشرق الوسط الجريدة الإلكترونية السبت ٢٦ شعبان ١٤٣١ هـ ٧ أغسطس ٢٠١٠ العدد ١١٥٧٥.

والآيات القرآنية في هذه المعاني كثيرة جداً، كما أن دليل العناية الربانية يشتمل أوجهاً كثيرة نكتفي بما ذكر هنا.

المبحث الثالث: الفطرة وأخذ الميثاق:

المقصود بهذا الدليل: أن الله فطر العباد على الإقرار بربوبيته وأخذ الميثاق منهم بذلك. كما يقصد به أن الله ﷻ قد خلق العباد مفطورين على ما يحقق لهم التجانس والحياة المتسقة في هذه الأرض، وكل ذلك دليل على الربوبية ونبين ذلك في نقاط:

– الفطرة على التوحيد:

الفطرة لغة هي الخلقة. (١)

والمراد بدليل الفطرة على التوحيد: أن الله تعالى خلق العباد مفطورين على الإقرار به، واعتقاد أنه خالقهم وربهم ومعبودهم .

وقد دل على ذلك أدلة عديدة ، منها :

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الرُّوم].

قال ابن كثير في معناها: «(فسدد وجهك واستمر على الذي شرعه الله لك، من الحنيفية ملة إبراهيم، الذي هداك الله لها، وكملها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة، التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده، وأنه لا إله غيره)». (٢)

ومن الأدلة على الفطرة حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل ترى فيها جدعاء». (٣)

وحديث عياض بن حمار المجاشعي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا: كل مال نخلته عبداً حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً ...» (٤) الحديث.

(١) اللسان ٣٤٣٣/٥ .

(٢) تفسير ابن كثير (٦/٣١٣).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، فتح الباري (٣/٢٤٦).

(٤) أخرجه مسلم كتاب الجنة، باب ١٦ (٤/٢١٩٧)، وأحمد (٤/١٦٢).

فهذه الأدلة تدل على أن الخلق مفطورون على الإقرار بالخالق وأنه ربهم وخالقهم ومعبودهم كما تدل على أن فطرتهم هذه قابلة للتغير بما يحرفهم آباؤهم إليه من اليهودية والنصرانية ، أو ما تصرفهم إليه الشياطين من كفر وإلحاد.

ومن الأدلة على الفطرة على التوحيد: أخذ الميثاق:

المقصود بأخذ الميثاق أن الله أخذ الميثاق من بني آدم بالإقرار بربوبيته فأقروا بذلك والدليل على ذلك: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿٣٦﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأعراف]

قال ابن جرير رحمه الله في معنى الآية ((واذكر يا محمد ربك إذ استخرج ولد آدم من أصلاب آبائهم، فقررهم بتوحيده، وأشهد بعضهم على بعض شهادتهم بذلك، وإقرارهم به))^(١).

وأخرج الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً قال: « إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم بنعمان -يعني عرفه- فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فنثرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم قبلاً قال: "ألسنت بربكم" قالوا: بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين»^(٢).

ومما يؤكد أخذ الميثاق من بني آدم بعد استخراجهم من ظهور آبائهم كما هو صريح الآية: حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: « يقول الله تعالى لأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة: لو أن لك ما في الأرض من شيء أكننت تفتدي به؟ فيقول: نعم، فيقول: أردت منك أهون من هذا، وأنت في صلب آدم: أن لا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلا أن تشرك بي ». ^(٣)

والمقصود هنا بأخذ الميثاق والفطرة: الإسلام الذي هو الإقرار لله بالعبودية وبهذا فسر أهل العلم من السلف الفطرة:

روى ابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) بسنده أن عمر رضي الله عنه مر بمعاذ بن جبل رضي الله عنه فقال ((ما قوام هذا الأمة ؟ قال معاذ : ثلاث وهن المنجيات : الإخلاص وهو: الفطرة، والصلاة: وهي الملة، والطاعة: وهي العصمة، فقال عمر: صدقت)).

(١) تفسير الطبري (٢٢٢ / ١٣) وقال بالإشهاد كثير من المفسرين والعلماء ومنهم صاحب أضواء البيان (٢ / ٤٣).

(٢) أخرجه أحمد (٢٧٢ / ١) ، رقم ٢٤٥٥ ذكر ابن كثير في تفسيره (٢٤١ / ٢) روايات عدة في هذا المعنى ورجح وقفها على ابن عباس رضي الله عنه .

(٣) أخرجه البخاري رقم (٦٥٥٧) ومسلم رقم (٢٨٠٥)

و روى ابن جرير أيضاً عن مجاهد(ت ١٠٤هـ) أنه قال: «(فطرة الله؛ الإسلام)»^(١) وهو قول أكثر السلف.

قال ابن حجر(ت ٨٥٢هـ) رحمه الله: «(وأشهر الأقوال أن المراد بالفطرة الإسلام قال ابن عبد البر(٤٦٣هـ) رحمه الله: وهو المعروف عند عامة السلف، وأجمع أهل العلم بالتأويل على أن المراد بقوله تعالى ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾: الإسلام واحتجوا بقول أبي هريرة في آخر حديث الباب اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾، وبحديث عياض بن حمار^{رضي الله عنه} عن النبي^ﷺ فيما يرويه عن ربه: «إني خلقت عبادي حنفاء كلهم فاجتالتهم الشياطين عن دينهم»؛ الحديث، وقد رواه غيره فزاد فيه: "حنفاء مسلمين" ورجحه بعض المتأخرين بقوله تعالى: "فطرة الله" لأنها إضافة مدح وقد أمر نبيه بلزومها فعلم أنها: الإسلام»^(٢).

وقال ابن قتيبة(ت ٢٧٦هـ) رحمه الله: «(وأراد بقوله: «كل مولود يولد على الفطرة»: أخذ الميثاق الذي أخذه عليهم في أصلاب آبائهم ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، فليست واجداً أحداً إلا وهو مقر بأن له صانعاً ومدبراً، وإن سماه بغير اسمه، أو عبد شيئاً دونه، ليقربه منه عند نفسه، أو وصفه بغير صفته، أو أضاف إليه ما تعالى عنه علواً كبيراً قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الرَّحْزُف: ٨٧]، فكل مولود في العالم على ذلك العهد والإقرار، وهي الحنيفية التي وقعت في أول الخلق، وجرت في فطر العقول، قال رسول الله^ﷺ: «يقول الله تبارك وتعالى: إني خلقت عبادي جميعاً حنفاء، فاجتالتهم الشياطين عن دينهم» ثم يهود اليهود أبناءهم، ويمجس المجوس أبناءهم، أي يعلمونهم ذلك»^(٣).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية(ت ٧٢٨هـ) رحمه الله: «(والله سبحانه فطر عباده على شيعين إقرار قلوبهم به علماً، وعلى محبته والخضوع له عملاً وعبادة واستعانة فهم مفطورون على العلم به والعمل له وهو الإسلام الذي قال فيه النبي^ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة»»^(٤).

فيكون بهذا ما فطر عليه الإنسان من الإقرار بالخالق والعبودية له والمحبة له دليلاً على الربوبية، وهذه أقصر الطرق وأقربها وألصقها بالإنسان فهي معجونة في طينته، وداعيتها والخرص عليها جزء من تكوينه

(١) أخرج الروایتين ابن جرير في تفسيره (٤٠/٢١) .

(٢) فتح الباري لابن حجر (٣/ ٢٤٨) وانظر قول ابن عبد البر رحمه الله في الاستذكار (٣/ ١٠٢)

(٣) تأويل مختلف الحديث (ص: ٢٠٠).

(٤) بيان تلبس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٤/ ٥٨٥) وانظر شفاء العليل (٢/ ٢٩٧-٣١٥) ، وانظر

القائد إلى تصحيح العقائد للمعلمي(ص: ١٨) .

وخلقته، فالأمر الموجب للإقرار بالربوبية ودافعه وباعثه مغرور في البشر عموماً قبل أن يولدوا، وهو معهم بعد أن يولدوا.

إلا أن هذه الفطرة دلت النصوص السابقة أنها تتغير بفعل مؤثرات عدة: منها الوالدان والشياطين والغفلة، فمن سلم من هذه المؤثرات لا شك أنه سينشأ على الفطرة وهي التوحيد.

—فطر العباد على غرائز وسلوكيات عديدة لا تستقيم حياتهم إلا بها، وهي دليل على الخالق العظيم، والرب الكريم.

الفطر: هي الغرائز التي خلق الله عليها خلقه وغرسها فيهم، والهدايات التي هدى بها المخلوقات إلى مصالحها، فهذه الغرائز والفطر هي المحققة للعيش السوي للإنسان وسائر الحيوان، وهي بجميع أنواعها يدل عليها قول الله تعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ ۖ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ۖ﴾ [طه] ، وقوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ [السجدة: ٧]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۖ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۖ﴾ [الأعلى]

من تأمل في هذه الآيات، يجد أن الله عَزَّوَجَلَّ قرر أن ربوبيته ظاهرة في كل شيء، ومنها تلك الغرائز التي غرسها في مخلوقاته، لضبط سلوكها وأسلوب معيشتها، وهي فطر مستقرة، واضحة في الإنسان، والحيوان، وهي برهانٌ ساطع، ودليل ظاهر على الخالق تبارك وتعالى، وليبان ذلك نذكر بعض أنواع الفطر التي فطر الله عَزَّوَجَلَّ الناس عليها:

١- : فطر الانسان على العلوم الضرورية:

يقسم أهل العلم العلوم من ناحية المصدر إلى قسمين

القسم الأول: العلم الكسبي النظري: وهو الذي يحتاج المخلوق معه إلى إعمال الفكر والنظر وله عمل وكسب فيه؛ كمعرفة ساعات الليل والنهار وبروج القمر والأطوال والأوزان وهكذا.

القسم الثاني : العلم الضروري: ويسمى أيضاً (البدهي) فهو العلم الذي لا يحتاج معه إلى إعمال فكر و اجتهاد، كأن تقول الجزء أصغر من الكل أو الواحد أقل من الإثنين أو أن $٢=١+١$ وهكذا، فهذا علم ضروري مخلوق في الإنسان وتعود إليه جميع العلوم المكتسبة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : ((البرهان الذي ينال بالنظر فيه العلم لا بد أن ينتهي إلى مقدمات

ضرورية فطرية، فإن كل علم ليس بضروري لا بد أن ينتهي إلى علم ضروري؛ إذ المقدمات النظرية لو أثبتت بمقدمات نظرية دائماً لزم الدور القبلي، أو التسلسل في المؤثرات في محل له ابتداء، وكلاهما باطل بالضرورة واتفاق العقلاء....^(١)

فبين شيخ الإسلام رحمه الله أن كل علم مكتسب لا بد وأن يرجع إلى علم ضروري، فمثلاً إذا قلنا إن الجزء أقل من الكل وهو علم ضروري فطري؛ فإننا إذا أردنا أن نقسم ٥٠ ريالاً بين ٥ أشخاص بالتساوي فلا بد أن نقسمها إلى أجزاء ليتمكن قسمتها على الخمسة، وإلا تعذر قسمتها، وهذا يعود إلى علم ضروري لدينا وهو أن الجزء أقل من الكل، وهكذا سائر المعارف.

وفي نفس هذا المعنى يقول الغزالي (ت ٥٠٥هـ): «إن العلوم الجليلة الأولية هي أصول العلوم الغامضة الخفية، وهي بذورها، ولكن يستثمرها منها من يُحسن الاستثمار بالحرارة والاستنتاج بإيقاع الازدواج بينهما»^(٢).

فالعلوم الضرورية هي فطرية يتفق فيها جميع العقلاء ولا يختلفون، وهي تدرك بدون معلم فمن علم الإنسان هذه العلوم وجعلها مشتركة إنسانياً لا يختلف البشر عليها المتعلم وغير المتعلم، لاشك أنه الله ﷻ القائل: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾.

٢- فطر الطفل على الرضاعة.

إن من الفطر الظاهرة والمعلومة لكل أحد أن الطفل يخرج من بطن أمه وهو لا يعلم شيئاً سوى الرضاعة أو مص الثدي، فالرضاعة لو لم يكن مفطوراً عليها لاحتاجت الأم إلى تعليمه، ولما كان الطفل المولود حديثاً غير قابل للتعليم؛ فطره الله ﷻ على الرضاع الذي لا يمكن أن يحيا إلا به، فيقبل على ثدي أمه ويمتص الحليب من ثديها لتحقيق له الحياة، بل إن الأطباء يذكرون أن الطفل له صور وهو في بطن أمه يمص إصبعه، فيكون هذا من باب تدريبه على عملية الرضاع التي لا يمكن أن يعيش بدونها.

(١) درء تعارض العقل والنقل (٣/ ٣٠٩).

(٢) القسطاس المستقيم للغزالي (ص ٣٤ - ٣٥).

يقول ديفيد ويست عن ديكارت أنه كان يقول: ((لا أحد يعلم الكتكوت كيف ينقر قشرة البيضة ليخرج منها، ولا الحمل الصغير كيف يرضع، ولا الطفل كيف يزحف، فإن الكتكوت والحمل والطفل ولدوا بتلك القدرات الداخلية)).^(١)

لا شك أن الذي وضع تلك القدرات الداخلية هو الله تعالى ولا يمكن افتراض أحد آخر غيره تبارك وتعالى بحال من الأحوال.

٣- فطر الإنسان على ما به معاشه وصحة جسده.

إن الإنسان مخلوق بكيفية محددة لا يمكن أن يعيش ويصح جسده وتحقق عافيته إلا بسلوك تلك الأمور، ولا يمكن أن يناع أحد في أن الإنسان مفطور على أكل الطيب وشرب الشراب الطيب ومحبة الروائح الزكية، والنفرة من الطعوم الخبيثة والأشربة الخبيثة والروائح الخبيثة. ولا يمكن بحال أن نكون كالحوانات التي تعيش على الطعوم الفاسدة والأشربة الفاسدة، فإذا من الذي فطرنا على ذلك؟!؛ إنه الله ﷻ.

ومهما فكرت في هذا الموضوع ستجد أنك مرغم على أن تقول: إنه الله الذي فطرنا على ذلك؛ فلسنا من فعلنا ذلك بأنفسنا، ولا منا من فعل له ذلك والداه، بل فطرة مستحكمة لا يمكن الخروج منها إلا بتحطيم أجسادنا وفساد مزاجنا وإبطال صحتنا.

٤- فطر الإنسان على الأخلاق الحميدة: إن الإنسان مخلوق خير بطبعه لا يعجبه إلا الخلق الجميل وينفر من الأخلاق الرذيلة، وإن قَبِلَ في بعض الأحيان -بسبب فساد مزاجه أو سوء تقديره- أن يمارس بعض الرذائل تجاه غيره؛ لكنه لا يقبل أن تمارس عليه من الآخرين، فالأخلاق من أقوى الأدلة على ربوبية الخالق بل وكرمه وجوده وإحسانه.

فإذن من أين جاءت هذه الأخلاق؟!، وهذه الكتلة المترابطة من الأخلاق مثل الصدق والكرم والعدل والأمانة والحب والإيثار والنخوة والمروءة والشجاعة والحنان والرأفة وغيرها؟ وفي المقابل نجد النفرة من أضدادها عاماً في البشر كلهم.

(١) الإيمان بوجود الله بالدليل العقلي ورفض الأديان في عصر مؤسسي الماسونية الأوائل . تأليف ديفيد ويست David West الناشر/ مؤسسة هاميلتون هوس المملكة المتحدة ٢٠١٥ م.

لا يمكن وجود تلك الأخلاق بهذه الكيفية التوافقية بين عموم البشر إلا أن يكون لها خالق أوجدها في الإنسان، وغرسها في بنيتها بكيفية مجهولة لنا تماماً، ولكننا نلمسها ونجد آثارها وتفاعل معها سلباً وإيجاباً، وهي في نفس الوقت دليل وبرهان على ربوبية الله ﷻ وألوهيته.

وحتى نتأكد من هذه الحقيقة المهمة جداً ننظر في بقية المخلوقات حولنا وكيف أنها أعطيت فطراً في هذا الباب متفاوتة حسب وضعها في الحياة، فالأسد مثلاً أعطي رحمةً لصغاره وحنواً عليهم، لكنه أعطي جبروتاً خالياً من الرحمة يتعلق بمطعمه، فهو يفترس بلا أدنى رحمة فريسته كبيرة كانت أم صغيرة، قوية أم ضعيفة، فمن الذي أعطاه هذه الغرائز التي هي في ناحية غاية العطف والحنان ومن الناحية الأخرى غاية الجبروت والقسوة؟!.

إن من غرس ذلك وخلقه هو الله ﷻ بكيفية مجهولة لنا، لكنها موجودة نلمسها. فإذا الذي وضع المبادئ الأخلاقية في ذواتنا وتنمو معنا، وتزيدها التربية والمحيط قوة وعمقاً لا شك أنه الله ﷻ، وليس لأحد أن يقول إن التربية هي التي أوجدته لأن التربية لا يمكن أن توجد معدوماً لكنها تهذب موجوداً وترقيه.

يقول فولتير الفيلسوف الفرنسي: ((أؤمن بالآله^(١)) ... الذي أعطاهم نفس المبادئ الأخلاقية التي يدركونها عندما يفكرون)). (٢)

ويقول كانط الفيلسوف الألماني: ((إن المبدأ الأخلاقي لا يقبل به على أنه ممكن إلا على أساس افتراض وجود صانع للعالم يكون على أعلى درجة من الكمال)). (٣).

ويقول ابن القيم رحمه الله: ((إن الله سبحانه فطر عباده على استحسان الصدق والعدل، والعفة والإحسان، ومقابلة النعم بالشكر، وفطرحهم على استقباح أضرارها، ونسبة هذا إلى فطرحهم وعقولهم كنسبة الحلو والحامض إلى أذواقهم، وكنسبة رائحة المسك ورائحة النتن إلى مشامهم، وكنسبة الصوت اللذيد وضده إلى أسماعهم، وكذلك كل ما يدركونه بمشاعرهم الظاهرة والباطنة، فيفرقون بين طيبه

(١) حين يقول فولتير وأضرابه من الفلاسفة ((أؤمن بالآله)) لا يعني ذلك سوى إقراره بالربوبية، أو إقراره بالخالقية والتدبير للكون.

(٢) القاموس الفلسفي لفولتير د. حسن حنفي (ص ٨٩).

(٣) نقد العقل العملي أمانويل كانط (ص ٢٣٨).

وخبيثه، ونافعه وضاره^(١).

٥- فطر الإنسان على الكلام والتعلم والتناسل:

هذه كلها فطر موجودة في الإنسان، وهي كامنة فيه بالقوة، وتظهر في الوقت التي تنهياً بنية الإنسان لظهورها، فمثلاً الطفل يولد وليس قادراً على الكلام ولكن عنده القدرة على تعلم الكلام، وإن كان يولد غير متكلم، ولكنه يبدأ التعلم في فترة مبكرة من عمره يبدأ بالمحاكاة حتى يفصح ويتكلم مثل والديه، فهذه فطرة فيه ولم يكتسبها من والديه، وإنما كانت فيه فطرة ولكنها تظهر وتقوى بالتدريب والمحاكاة.

ومما يؤكد أن هذه فطرة في الإنسان: أننا لو جعلنا مع طفل هرة مولودة حديثاً وتكون ملازمة لهذا الطفل وملازمة لوالديه فإنها لا يمكن أن تنطق، ولا أن تحاكي الوالدين البشريين في النطق بحال من الأحوال؛ لأنها ليس لها هذه الفطرة.

أما التعلم فإن الطفل معلوم قدرته على تعلم أشياء كثيرة، يبدأ والداه يعلمانه، والهر كذلك قابل للتعلم في حدود ضيقة جداً، لا يمكن مقارنتها بما يمكن للإنسان تحصيله من خلال التعليم.

وأما التناسل فهو كذلك يكون في الإنسان كامناً حتى يبلغ سن البلوغ، فتظهر فيه هذه الغريزة ذكراً كان أو أنثى، وهذا لبقاء النوع الإنساني، ومع أنها لها نقاط كثيرة تعود إلى التعلم إلا أنها في أساسها فطرية، وكذلك هي في سائر الحيوان فطرية، تبدأ بعد وقت محدد لكل منها في السعي إلى التناسل لتحقيق بقاء النوع.

لا شك أن كل عاقل يدرك أن هذه الفطرة وغيرها مما ذكر من الفطر وهي كثيرة جداً لم يوجد لها الإنسان في نفسه، بل خلقها الذي خلقه وهو الله ﷻ وفطره على هذه الفطر التي تضبط له مساره وتحدد له منطلقاته، وتهيئه لما أراد الله من إيجادها في هذه الأرض.

وهي براهين واضحة وحجج بينة على الخالق العظيم والجواد الكريم القوي العزيز الحكيم، وقد أقام بها الحجة نبي الله موسى عليه السلام على أعنى ملاحظة الأرض فأخرسه وأجمه: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا

يَمُوسَى ۖ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ۖ ثُمَّ هَدَى ۝﴾ [طه].

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٢٤٥).

المبحث الرابع : البراهين العقلية .

البراهين العقلية هي الأدلة العقلية النظرية التي تدل على وجوب وجود الخالق العليم الكريم الحكيم القوي الرحيم، وكل ما يقع تحت نظر الإنسان وعلمه من المخلوقات هي براهين عقلية على الخالق الواحد وحده لا شريك له، لأن كل من نظر إليها بنظر فاحص وعقل متبصر يدرك أن لها خالقا فالسموات والأرض والجبال والأشجار والإنسان والحيوان والبحار والأزهار والثمار كل ذلك براهين عقلية تدل على الواحد القهار، والأدلة عليه سبحانه من الوضوح كما قيل:

وليس يصح في الأفهام شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل^(١)

وقد سبق بيان مجموعة من الأدلة الكونية وأدلة العناية وكلها أدلة عقلية فإن الله وَعَلَّمَ قَدْ وَجَّهَ الْعُقُولَ للنظر فيها والتأمل ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۖ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۚ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۚ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۚ﴾ [الغاشية]

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ أَلْبَرَقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝﴾ [الرؤم]

فهذه كلها وغيرها كثير تدعو للنظر العقلي، وبعض أهل العلم يدخل النظر في الآيات الكونية تحت الأدلة العقلية على الربوبية.

ومقصودنا هنا بالبراهين العقلية: الأدلة العقلية النظرية التي يتوصل منها إلى الإقرار لله وَعَلَّمَ قَدْ وَجَّهَ الْعُقُولَ بالربوبية والألوهية.

ومن أهمها:

أن كل محدث لا بد له من محدث، وأن لكل فعل فاعل يدل على صفاته وقدراته: فهذا الكون الفسيح والأرض وما عليها والإنسان والحيوان كل ذلك لم يصنع نفسه فلا بد له من موجد وخالق له من الصفات والقدرات ما يتفق مع عظمة مصنوعه، وهذا دليل عقلي وهو فطري أيضا، وقد ذكره الله وَعَلَّمَ قَدْ وَجَّهَ الْعُقُولَ في مواطن من كتابه من أظهرها قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ ۝ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ۝﴾ [الطور].

(١) وهو من شعر المتنبي انظر : شرح معاني شعر المتنبي لابن الإفليلي (٢ / ٩٢)

فهذه الآية صريحة الدلالة والتقسيم لسائر الأقوال الباطلة فقد جعلت الإنسان أمام نفسه ينظر ويتأمل فهو: إما أنه خلق من لا شيء وهي دعوى الصدفة التي يدعيها الملاحدة، وهي دعوى باطلة عقلا وحسا وعرفا فإن من العلوم الضرورية أن لكل مصنوع صانع ولكل محدث محدث؛ وهذا أمر يدرك بأدنى نظر.

وهي كما سئل أعرابي عن وجود الخالق تبارك وتعالى، فقال: «(البقرة تدلّ على البعير، وآثار الأقدام تدلّ على المسير، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج ألا تدلّ على العليم الخبير؟!)(١)»

وإما أن الإنسان هو الخالق لنفسه؛ فهذا معلوم بطلانه بداهة ، وكل إنسان يدرك أنه مخلوق وليس بخالق، وأنه أوجد ولم يوجد نفسه، فإذا ليس بدّ من التسليم للحقيقة الناصعة وهي أن الله عز وجل هو الخالق وحده وليس هناك خالق سواه.

وعظمة المخلوقات تدل من وجه آخر على عظمة خالقها، فمن رأى صخرة ضخمة تحركت من مكانها يدرك أن غلة أو قطة لا يمكن أن تحركها وإنما رجل قوي قادر حركها، فمن هذا الوجه من علم عظمة السماوات وجمال المخلوقات واتساق خلقها وتكوينها أدرك عظمة خالقها وهو الله ﷻ.

وآية الطور سمعها جبير بن مطعم ﷺ قبل أن يسلم فكانت سببا في إسلامه و كان قد جاء في فداء أسرى بدر فاضطجع في المسجد واستيقظ على قراءة الرسول ﷺ في المغرب بسورة الطور وسمعه وهو يقرأ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ فقال: «فكأنما تصدع قلبي حين سمعت القرآن فكان يومئذ أول ما دخل الإسلام قلبي».(٢)

وروى البخاري ذلك عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه رضي الله عنه، قال: «سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ ٣٥ أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ٣٦ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُضْطَرُونَ ٣٧﴾ [الطور] قال: كاد

(١) روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار لمحمد بن قاسم الحنفي (ص: ١٦) وانظر لوامع الأنوار البهية للسفاريني (١/ ٢٧٢).

(٢) تاريخ بغداد (٤/ ٨٧) تاريخ دمشق لابن عساكر (٧٢/ ٤٢)

قلبي أن يطير)).^(١)

قال ابن القيم رحمه الله عن آية الطور: ((ومن هذا احتجاجه سبحانه على المشركين بالدليل المقسم الحاصر الذي لا يجد سامعه إلى رده ولا معارضته سبيلا حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ ٥٠ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴾ فتأمل هذا التردد والحصر؛ المتضمن لإقامة الحجة بأقرب طريق وأفصح عبارة يقول تعالى: هؤلاء مخلوقون بعد أن لم يكونوا فهل خلقوا من غير خالق خلقهم؟! فهذا من المحال الممتنع عند كل من له فهم وعقل أن يكون مصنوع من غير صانع ومخلوق من غير خالق، ولو مر رجل بأرض قفر لا بناء فيها ثم مر بها فرأى فيها بنيانا وقصورا وعمارات محكمة لم يتخالجه شك ولا ريب أن صانعا صنعها وبانیا بناها.

ثم قال (أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ) وهذا أيضا من المستحيل أن يكون العبد موجدًا لنفسه خالقًا لها، فإن من لا يقدر أن يزيد في حياته بعد وجوده وتعاطيه أسباب الحياة ساعة واحدة ولا أصبعًا ولا ظفرًا ولا شعرة كيف يكون خالقًا لنفسه حال عدمه؟! وإذا بطل القسمان تعين أن لهم خالقًا خلقهم وفاطرًا فطرهم فهو الإله الحق الذي له عليهم حق العبادة وواجب الشكر، فكيف يشركون به إلهًا غيره وهو وحده الخالق لهم؟!)).^(٢)

ومن التطبيق العملي لهذا البرهان العقلي:

قول موسى عليه السلام لفرعون لما سأله مستنكرًا عن رب العالمين كما قال تعالى ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ٢٥ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ٢٦ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ ۖ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ٢٧ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ٢٨ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ٢٩ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ٣٠ [الشعراء]

فرعون سأل مستنكرًا أن يكون للناس رب فأجابه موسى بالحجة التي ذكرها الله ﷻ في آية الطور فقال له أولاً: (رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا) فلفت نظره للعالم العلوي والسفلي، فلما أظهر التغابي قال له: (رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ) فلفت نظره لربوبية الله للحاضرين والماضين فلما أخذ يهذي

(١) صحيح البخاري (٦/ ١٤٠)

(٢) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعتلة (٢/ ٤٩٢).

بالسبب والشتيم قال له: (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا) فلفت نظره للمشاركة والمغارب وأن الله هو رب كل ذلك، فلم يجر جواباً؛ سوى التوعد بالسجن؛ فمعنى ذلك أن الحجة قد أفحمته وأبطلت عليه كل دعاوية وتخريفاته.

فهذه براهين عقلية واضحة وصريحة، ومحققة للغرض الأسمى وهو إثبات الربوبية لله ﷻ وحده وأنه المستحق للعبودية وحده دون من سواه.

المبحث الخامس: الأدلة الحسية

المقصود بالأدلة الحسية هنا: الأدلة التي تستخدم فيها الحواس أو بعضها لإثبات ربوبية الله ﷻ وألوهيته (١).

والاستدلال بالحس على الربوبية من الأدلة الواضحة المتيسرة لكل عاقل (٢)، وهي أدلة كثيرة جداً مبثوثة في الكون كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل] وقوله تعالى ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت].

وقوله تعالى هنا: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ هي رؤية بصرية أو علمية، وما لاشك فيه أن المخلوقات المنظورة للإنسان والتي يحسها بحواسه التي خلقها الله فيه؛ هي دلائل على الربوبية، ولا يجب على العاقل إلا ربط الدليل بالمدلول عليه، ليتمكن من استنتاج الدليل، وعقله، وفهمه.

فمن أحس ببصره، أو بحاسة أخرى من حواسه شيئاً معيناً، سيدرك تماماً أن المحسوس هو برهان واضح على الربوبية، فمن رأى الرياح حين تهب، أو الغيوم حين تتجمع في الفضاء، أو المطر حين يهطل منها، أو رأى النبات حين ينمو، أو الثمار حين تظهر في الأشجار، أو الأزهار حين تتفتح؛ فسيدرك أنها كلها أدلة على كمال الرب تبارك وتعالى وعلمه وحكمته ورحمته.

وقد لفت الله ﷻ نظر الإنسان إلى هذا الدليل على الربوبية، لسهولة و، تمكن كل عاقل من استعماله، فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿١٠﴾﴾ [الغاشية] فهذه المخلوقات المذكورة منظورة بالعين محسوسة باللمس بالنسبة للإبل والجبال والأرض، وهي في خلقها غاية في العجب، ودليل يقنع الناظر بربوبية الخالق تبارك وتعالى وحكمته ورحمته.

(١) سبق بيان تعريف الحس في الدرس السابع في الأدلة الفرعية على المعتقد.

(٢) انظر: النبوات لابن تيمية (٢/ ١٠٩٥).

وكذلك قوله تعالى ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ ١٤ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ١٥ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ١٦ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ١٧ وَعَبْنَا وَقَضَبًا ١٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ١٩ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ٢٠ وَفِكَهَةً وَأَبًّا ٢١ مَتَّعَّا لَكُمْ وَلَا نَعْمِيَكُمْ ٢٢﴾ [عبس].

وظاهر من هذه الآيات: لفت نظر الإنسان إلى ما يدركه بحسه لعجيب الصنع، وبديع الخلق، ليكون ذلك شاهداً لعظمة الخالق، وكمال ربوبيته، وحكمته، ورحمته، واستحقاقه العبودية وحده.

ومثلها في الدلالة قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرَقَ حَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ٢٣ [الرؤم]، فإحياء موات الأرض بالماء الذي ينزله الله دليل محسوس مشاهد ملموس، وهو دليل قريب ظاهر واضح على ربوبية الله ﷻ وألوهيته، وإن عارض ملحد بأن نزول المطر وحياة النبات به إنما ذلك وفق قوانين معلومة وثابتة؛ قلنا: إن هذا دليل إضافي على ربوبية الله وعلمه وحكمته لأن وضع القوانين وثباتها دليل على واضع لها خبير عليم .

ومن أعظم الأدلة المحسوسة وأقربها للإنسان الإنسان نفسه؛ فالإنسان عجيب الصنعة، وفيه من بديع الخلق والتكوين، ما يمكن معه أن نقول إن كل جزء من الإنسان فيه آيات، وليست آية واحدة، لذا لفت الله ﷻ نظر الإنسان لذلك فقال تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ٢٤ [الذاريات] .

- قال الطبري في تفسير الآية: ((معنى ذلك: وفي أنفسكم أيضاً أيها الناس آيات وعبر تدلُّكم على وحدانية صانعكم، وأنه لا إله لكم سواه، إذ كان لا شيء يقدر على أن يخلق مثل خلقه إياكم ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ يقول: أفلا تنظرون في ذلك فتتفكروا فيه، فتعلموا حقيقة وحدانية خالقكم)).^(١)

كما ذكر الله أدلة محسوسة كثيرة على البعث، وهي في حقيقتها = أدلة على الربوبية من ناحية أن الفاعل لذلك هو الله ﷻ.

- قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ٢٥ [الأعراف: ٥٧]، وهذا دليل ملموس يراه الناس بأبصارهم فيرون الرياح، ونزول الأمطار، وأثرها في خروج الثمار، والزرع، فينظرون ذلك بعيونهم وحواسهم وينظرون بعقولهم إلى قدرة الخالق تبارك وتعالى على إحياء الموتى.

(١) تفسير الطبري (٢٢ / ٤٢٠).

وكذلك من الأمثلة قوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ لِلْعَذَابِ أَنَّهُ ثَمَرُ الْغُلَّتِمْ نَفْسًا فَاذْرَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ٧٢﴾ فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٧٣﴾ [البقرة: ١].^(١)

- وهذا دليل حسي إذ يبصرهم يرون إحياء الموتى ليستدلوا بذلك على قدرة الخالق على إحياء الموتى، وهي أدلة على كمال الربوبية لذا جمع الله بينهما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزُبْ عَنْهُنَّ بِقَدْرِ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٣٣﴾ [الأخفاف: ٣٣].

فلفت نظر العاقل إلى الاستدلال بما يراه من مخلوقاته وما فيها من دلائل قدرته العظيمة على قدرته على إحياء الموتى، فجمع هنا بين الدليلين، الدلالة على إحياء الموتى والدلالة على ربوبية الرب تبارك وتعالى وعظيم قدرته.

المبحث السادس: دلالة آيات الرسل عليهم السلام

إن من أظهر الآيات وأدلها على المقصود؛ الآيات والمعجزات التي أجراها الله تعالى على أيدي أنبيائه، وهي أدلة حسية لمن حضرها وشاهدها، وهي دلائل عظيمة دالة على ربوبية الله وألوهيته، وصدق أنبيائه تعالى فيما دعوا إليه أقوامهم من التوحيد وقد سماها الله تعالى آيات:

قال تعالى: ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَهُمْ مِّنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ ٢١١﴾ [البقرة: ٢١١]. وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَمَسَّ عَلَىٰ إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا ٣٣﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ٣٤﴾ [الإسراء: ٣٣-٣٤].

قال ابن القيم رحمه الله: ((وهذه الطريق من أقوى الطرق وأصحها وأدلها على الصانع وصفاته وأفعاله، وارتباط أدلة هذه الطريق بمدلولاتها أقوى من ارتباط الأدلة العقلية الصريحة بمدلولاتها؛ فإنها جمعت بين دلالة الحس والعقل.

ودلالاتها ضرورية بنفسها ولهذا يسميها الله سبحانه آيات بينات، وليس في طرق الأدلة أوثق ولا أقوى منها؛ فإن انقلاب عصا تَمِيزُهَا اليدَ ثعباناً عظيماً يبتلع ما يمر به ثم يعود عصا كما كانت من أدل الدليل على وجود الصانع وحياته وقدرته وإرادته وعلمه بالكيلات والجزئيات، وعلى رسالة الرسول ﷺ، وعلى المبدأ والمعاد، فكل قواعد الدين في هذه العصا، وكذلك اليد، وفلق البحر طرُقاً والماء قائم بينهما كالحيطان، ونتق الجبل من موضعه ورفع على قدر العسكر العظيم فوق رؤوسهم، وضرب حجر مربع بعصا فتسيل منه اثنتا عشرة عينا تكفي أمة عظيمة، وكذلك سائر آيات الأنبياء؛ فأخراج ناقة عظيمة من صخرة تمخضت بها ثم انصدعت عنها والناس حولها ينظرون، وكذلك تصوير طائر من طين ثم ينفخ فيه النبي فينقلب طائراً ذا لحم ودم وريش وأجنحة يطير بمشهد من الناس، وكذلك إيماء الرسول

(١) وذكر الشيخ ابن عثيمين رحمه الله على ذلك أمثلة عديدة في شرح ثلاثة الأصول (ص: ١٠٥).

ﷺ إلى القمر فينشق نصفين بحيث يراه الحاضر والغائب فيخبر به كما رآه الحاضرون، وأمثال ذلك مما هو من أعظم الأدلة على الصانع وصفاته وأفعاله وصدق رسله واليوم الآخر، وهذه من طرق القرآن التي أرشد إليها عباده ودلهم بها^(١).

والآيات في هذا كثيرة، وزعها الله ﷻ في القرآن الكريم في مواطن عديدة، منها:

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَلِكُ بِيَمِينِكَ يَمُوسَىٰ ۚ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْبُشْ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ۚ قَالَ أَلْقَاهَا يَمُوسَىٰ ۚ فَلَقَاهَا فِإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۚ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ۚ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ؕ آيَةً أُخْرَىٰ ۚ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَىٰ ۚ﴾ [طه].

وقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ۚ وَأَزَلَفْنَا ثَمَّ الْأَخْرِينَ ۚ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ۚ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ۚ﴾ [الشعراء]

وقوله تعالى عن آية صالح لقومه لما طلبوا منه أن يخرج لهم ناقة من صخرة حدودها: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۚ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۚ فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ ۚ﴾ [الشعراء] والنصوص في هذا كثيرة.

ومن أعظم الآيات وأدومها:

— آية نبينا محمد ﷺ القرآن الكريم أعظم الآيات التي نزلت من قبل الله ﷻ :

من أعظم الآيات والبراهين والمعجزات؛ القرآن الكريم؛ فهو آية مستقلة كافية من جميع الوجوه في الدلالة على الخالق تبارك وتعالى بأصح دلالة وأوضحها وأصدقها وأكملها.

قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ۚ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ ءَايَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۚ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۚ﴾ [العنكبوت]

فهو من جنس آيات الأنبياء المحسوسة، بل هو أعظمها، فعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «ما من الأنبياء من نبي إلا قد اعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحى الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»^(٢).

— إن عموم الأنبياء قد أيدهم الله عز وجل بآيات دالة على صدقهم، وبها يتحدى الله عز وجل المنكرين والمكذبين، ويزداد الذين آمنوا إيماناً، وأعظم البراهين والأدلة هو القرآن الكريم الذي جعله الله

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعتلة (٣/ ١١٩٧).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٧٢٧٤) ومسلم رقم (١٥٢).

له آية باقية إلى يوم القيامة، فالقرآن كلام الله تعالى المعجز ، والذي تحدى الله به الإنس والجن قال تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مبيناً التحدي وبعض أنواع الإعجاز: ((فإذا كان قد تحداهم بالمعارضة - مرة بعد مرة - وهي تبطل دعوته، فمعلوم أنهم لو كانوا قادرين عليها لفعلوها!، فإنه مع وجود هذا الداعي التام المؤكد إذا كانت القدرة حاصلة؛ وجب وجود المقدور، ثم هكذا القول في سائر أهل الأرض.

فهذا القدر يوجب علماً بيناً لكل أحد بعجز جميع أهل الأرض، عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن بحيلة، وبغير حيلة.

وهذا أبلغ من الآيات التي يكرر جنسها كإحياء الموتى، فإن هذا لم يأت أحد بنظيره، وكون القرآن أنه معجزة ليس هو من جهة فصاحته وبلاغته فقط، أو نظمه وأسلوبه فقط، ولا من جهة إخباره بالغيب فقط، ولا من جهة صرف الدواعي عن معارضته فقط، ولا من جهة سلب قدرتهم على معارضته فقط، بل هو آية بينة معجزة من وجوه متعددة: من جهة اللفظ، ومن جهة النظم، ومن جهة البلاغة في دلالة اللفظ على المعنى، ومن جهة معانيه التي أخبر بها عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وملائكته، وغير ذلك. ومن جهة معانيه، التي أخبر بها عن الغيب الماضي، وعن الغيب المستقبل، ومن جهة ما أخبر به عن المعاد، ومن جهة ما بين فيه من الدلائل اليقينية، والأقيسة العقلية التي هي الأمثال المضروبة،..... وكل ما ذكره الناس من الوجوه في إعجاز القرآن، هو حجة على إعجازه، ولا تناقض في ذلك، بل كل قوم تنبهوا لما تنبهوا له.

ثم قال: فالصواب المقطوع به أن الخلق كلهم عاجزون عن معارضته، لا يقدرّون على ذلك، ولا يقدر محمد ﷺ نفسه من تلقاء نفسه على أن يبدل سورة من القرآن، بل يظهر الفرق بين القرآن وبين سائر كلامه لكل من له أدنى تدبر، كما قد أخبر الله به في قوله: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].^(١)

ومع هذا التحدي فقد حوى القرآن دلائل صدقه، وصدق من جاء به، وتكفل الله بإظهار ذلك على مر الزمان وكر العصور والدهور.

قال تعالى: ﴿سُئِرْهُمْ ءَايَتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٥/ ٤٢٧)

فمعنى هذه الآية: أن الله سيطلع الناس في كل زمان على دلائل وبراهين صدق رسوله، في أن القرآن حق من عند الله، فيؤمن ويسلم من أراد الله هدايته، وتقوم الحجة على من عمي عنها، لأن هذه هي الغاية من بعث الرسل، وإنزال الكتب، وإظهار المعجزات، سواء الحسية أو العلمية أو البلاغية.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ١٥ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أِهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ١٦ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ١٧﴾ [النمل].

— ولا بد هنا أن نعلم أن الهداية للدين والإيمان والبصيرة في آيات الله منحة من الله، يحرم منها من ليس أهلاً لها من المتكبرين والفاستقين.

قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِءَايَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ١٨﴾ [الأعراف: ١٤٦].

وقد رأى أعداء الله من المكذبين للرسل، كقوم صالح وفرعون وغيرهم الآيات العديدة عياناً، فلم يؤمنوا، وقالوا: سحر مبين، وغير ذلك من التبريرات التي لا تغني عن أصحابها شيئاً.

ونشير هنا إلى عدة أدلة مما حوى القرآن الكريم التي لا يمكن للنبي ﷺ أن يأتي بها من عند نفسه، ولا أن يأتي بها بشر، بل فيها برهان أن القرآن من عند الله:

١- الإعجاز العلمي.

الإعجاز العلمي: المراد به أن الله أخبر بحقائق علمية ليس في طاقة النبي ﷺ، بل ولا أحد من أهل زمانه أن يعلمها، إلا أن الله تعالى العليم الخبير قد أخبر بها في القرآن الكريم، لكي يكون في ذلك آية متجددة على مر الزمان تدل على أن القرآن من عند الله تعالى. (١)

(١) من المناسب هنا أن نبين الضوابط التي ذكرها العلماء في تفسير الآيات القولية المتعلقة بالآيات الكونية الخلقية، وهي: ١- أن القرآن الكريم ليس كتاباً للعلوم الدنيوية، فهو ليس كتاب فلك ولا طب ولا هندسة ونحوها، وإنما هو كتاب هداية للإيمان وطاعة الرحمن، قال تعالى: {تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً} الفرقان، والآيات في هذا المعنى عديدة.

٢- أن يقتصر على الحقائق العلمية في تفسير الآيات، وهي التي ثبتت بالمشاهدة أو بالتجربة أو بالبرهان القاطع، ولا يأخذ بالنظريات والفرضيات، وذلك لأن النظريات قد تتغير، كنظرية دارون في أصل الأنواع، وكذلك نظرية

– بعض الآيات التي ذكرت الحقائق العلمية:

يذكر العلماء في فنون كثيرة ممن اهتموا بهذا الباب من مسلمين وغيرهم آيات كثيرة ومتنوعة وردت في فنون شتى من العلوم، فمنهم الفلكيون والأطباء، وعلماء الآثار والتاريخ، وعلماء طبقات الأرض، وغيرهم.

قال د. موريس بوكاي، وهو مستشرق فرنسي، صاحب الكتاب المشهور "القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم"، وكان قد تعلم العربية ليطلع على نص القرآن الكريم مباشرة، بدون الترجمات المغلوطة والحاقدة من كثير من المترجمين، فبناء على ذلك قال:

((لقد أذهلني دقة بعض التفاصيل الخاصة بهذه الظاهرات - يعني الظواهر الطبيعية- وهي تفاصيل لا يمكن أن تدرك إلا من النص الأصلي، أذهلني مطابقتها للمفاهيم التي تملكها اليوم عن نفس هذه الظاهرات، والتي لم يكن ممكناً لأي إنسان في عصر محمد ﷺ أن يكونَ عنها أدنى فكرة... ثم قال: إن أول ما يثير الدهشة في روح من يواجه مثل هذا النص لأول مرة، هو ثراء الموضوعات المعالجة، فهناك الخلق وعلم الفلك، وعرض لبعض الموضوعات الخاصة بالأرض، وعالم الحيوان وعالم النبات والتناسل الإنساني.

وعلى حين نجد في التوراة أخطاء علمية ضخمة لا نكتشف في القرآن أي خطأ!، وقد دفعني ذلك لأتساءل: لو كان كاتب القرآن إنساناً كيف استطاع في القرن السابع من العصر المسيحي أن يكتب ما اتضح أنه يتفق اليوم مع المعارف العلمية الحديثة؟! ليس هناك أي مجال للشك، فنص القرآن الذي نملك اليوم هو فعلاً النص الأول)).^(١)

تكون الكواكب ونحوها، وهذا التغير والتبدل ينعكس على فهم النص القرآني، فقد يؤدي إلى تكذيب القرآن وجعله تبعاً للفهوم الباطلة.

أما الفرضيات فهي أسوأ، لأنها لا تعدو أن تكون تخميناً، كفرضية وجود أحياء على الكواكب الأخرى ونحوها.

٣- أن لا يتعسف في تفسير الآيات وتلوي أعناقها لتوافق ما يرى أن الآية تدل عليه.

٤- أن يقرر أن هذا حسب فهمه للنص، ولا يلزم من ذلك أن هذه حقيقة النص، لأن نصوص القرآن من علم الله، ولا يحيط بعلم الله أحد، وقد يكون بدا للناظر فيها وجه ووجه من الحقيقة العلمية التي يريد أن يطبق عليها الآية، وقد يكون وراءها مناحي كثيرة لا يعلمها هو، كما أن لغة القرآن لغة استخدمت الألفاظ الجامعة التي تحيط بكل المعاني الصحيحة، فحصرها في معنى واحد من المعاني تحكم ما لم يرد نص قاطع في المعنى المقصود من المعصوم صلوات الله وسلامه عليه. انظر: تأصيل الإعجاز العلمي ص ٢٦، مباحث في إعجاز القرآن ص ١٧١.

(١) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم موريس بوكاي، ص ١٤٥ .

فمعنى ذلك أن النصوص القرآنية المتعلقة ببعض الظواهر الطبيعية أو الخلقية ونحوها، لا يمكن معرفة حقيقة المقصود بها إلا بالآلات الحديثة، والتي لم تتوفر إلا في هذه الأزمان المتأخرة، وهذا فيما لم يفسره النبي ﷺ .

وبسبب هذا سنكون متطفلين على أهل الاختصاص، نذكر ما قالوا فيما هو من علمهم في هذا الباب، ونعرض الآيات المحققة والمؤكدّة لهذا المعنى، ليكون ذلك دليلاً على إعجاز القرآن العلمي، وآية على أنه الحق، وأنه من عند الله، وأن رسول الله ﷺ آتاه الله القرآن، وأن الرسول ﷺ هو رسول رب العالمين، فمن ذلك:

أ- كروية الأرض:

صرح الله تعالى بكروية الأرض تصريحاً واضحاً في آيات عدة، مثل:

قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّورُ ۝﴾ [الرَّؤْدُ : ٥].

والتكوير: هو اللف والإدارة^(١)، ولا يمكن بحال أن يتكوّر الليل على النهار إذا كانت الأرض منبسطة انبساطاً تاماً بدون تكوير فيها، لأن انبساط الأرض يلزم منه أن يكون إشراق الشمس على الأرض كلها في لحظة واحدة، ثم تغيب عن الأرض كلها، فتكون الأرض كلها قريب اثنتي عشرة ساعة في ظلام دامس، وهذا غير واقع وغير صحيح، أما إذا كانت كروية فإن معنى ذلك أن النهار يدفع الليل، والليل يدفع النهار، فكلما ظهرت الشمس على جهة دخل الليل على الجهة المقابلة، وهكذا فهذا صريح في تكوير الأرض.^(٢)

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: ((قال الإمام أبو الحسين أحمد بن جعفر بن المنادي من أعيان العلماء المشهورين بمعرفة الآثار والتصانيف الكبار في فنون العلوم الدينية من الطبقة الثانية من أصحاب أحمد: لا خلاف بين العلماء أن السماء على مثال الكرة وأنها تدور بجميع ما فيها من الكواكب كدورة الكرة على قطبين ثابتين غير متحركين: أحدهما في ناحية الشمال والآخر في ناحية الجنوب. قال: ويدل على ذلك أن الكواكب جميعها تدور من المشرق تقع قليلاً على ترتيب واحد في حركاتها ومقادير أجزائها إلى أن تتوسط السماء ثم تنحدر على ذلك الترتيب. كأنها ثابتة في كرة تديرها جميعها دوراً واحداً. قال:

(١) قال الراغب: كور الشيء إدارته، وضم بعضه إلى بعض ككور العمامة. المفردات، ص ٤٣٣.

(٢) انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم (٢/ ٧٨) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٥/

١٥٠) مفتاح دار السعادة لابن القيم (٢/ ٢١٢) تفسير المنار محمد رشيد رضا (١/ ١٧٧) الأجزاء الكونية بين

النقل والعقل، عبدالعزيز بن خلف (ص: ٩٢-١٠٥) تفسير العثيمين: جزء عم (ص: ١٧٩)

وكذلك أجمعوا على أن الأرض بجميع حركاتها من البر والبحر مثل الكرة. قال: ويدل عليه أن الشمس والقمر والكواكب لا يوجد طلوعها وغروبها على جميع من في نواحي الأرض في وقت واحد بل على المشرق قبل المغرب. قال: فكرة الأرض مثبتة في وسط كرة السماء كالنقطة في الدائرة. يدل على ذلك أن جرم كل كوكب يرى في جميع نواحي السماء على قدر واحد فيدل ذلك على بعد ما بين السماء والأرض من جميع الجهات بقدر واحد فاضطرار أن تكون الأرض وسط السماء)).^(١)

قال الشيخ السعدي في قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية ٥]: ((واعلم أن تسطيحها لا ينافي أنها كرة مستديرة، قد أحاطت الأفلاك فيها من جميع جوانبها، كما دل على ذلك النقل والعقل والحس والمشاهدة، كما هو مذكور معروف عند أكثر الناس، خصوصا في هذه الأزمنة، التي وقف الناس على أكثر أرجائها بما أعطاهم الله من الأسباب المقربة للبعيد، فإن التسطيح إنما ينافي كروية الجسم الصغير جدا، الذي لو سطح لم يبق له استدارة تذكر. وأما جسم الأرض الذي هو في غاية الكبر والسعة، فيكون كرويا مسطحا، ولا يتنافى الأمران، كما يعرف ذلك أرباب الخبرة)).^(٢)

وهذا يخالف ما كان فهمه كثير من العلماء، من أن الأرض ممتدة مبسوطة، وليست مكورة مستدلين على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا﴾ [ق: ٧]. وهذه الآية فيها دلالة واضحة على كروية الأرض؛ وذلك أنها لو كانت مبسوطة كسطح الطاولة مثلاً فإنه لا يمكن أن تمتد، وإنما سيتوقف الماشي عليها والساالك فيها بخط مستقيم، حين ينتهي إلى حافتها ونهايتها، أما مع تكويرها فإنك إذا سلكت أي اتجاه فإنك لا تصل إلى نهاية ولو مشيت عمرك كله، لأنك تستدير معها.

ب-الإخبار عن برزخ بين البحرين :

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾ [الفرقان]، وقال تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ١١ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ١٢﴾ [الرحمن]، اختلف المفسرون في بيان الحاجز بينهما فقل:

هو اليابسة، كما ذكر ذلك ابن جرير عن ابن عباس ، وعن الحسن البصري ، وهو الذي رجحه ابن كثير ، وقال: ((برزخاً أي حاجزاً ، وهو اليبس من الأرض.

(١)مجموع الفتاوى (٢٥ / ١٩٥).

(٢)تفسير السعدي (ص: ٩٢٢) وانظر كلام الشيخ ابن عثيمين في تقرير ذلك تفسير العثيمين: جزء عم (ص:

١٧٩) فتاوى اللجنة الدائمة (٢٦ / ٤١٤)

وقيل: إن الحاجز شيء غير مرئي يمنع امتزاج أحدهما في الآخر بعد التقائهما، قال مجاهد: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾، قال: حاجزاً لا يراه أحد لا يختلط العذب في البحر.

وقال ابن جريج: فلم أجد بحراً عذباً إلا الأنهار العذاب، فإن دجلة تقع في البحر، فأخبرني الخبر بها أنها تقع في البحر فلا تمور فيه بينهما مثل الخيط الأبيض، وهذا ما رجحه ابن جرير رحمه الله^(١).
- ومع أن القول الأول وجيه من ناحية إثبات أن اليابسة حاجز من طغيان الماء المالح الكثير على مياه الأنهار القليلة بالنسبة لمياه البحار، إلا أن القول الأخير هو الأظهر والأقرب لمعنى الآية، لأنه نص على الاختلاط، وأنه جعل بينهما برزخاً حال الاختلاط، فلا يبغي أحدهما على الآخر .

وهذا ما أثبتته العلم الحديث: من أن مياه الأنهار عند مصباتها تشكل بحيرات خاصة بها، وتعيش في تلك البحيرات كائنات حية لا تستطيع الخروج منها، فهي حجر محجور.

- بل إنهم نصوا على أن: البحار نفسها إذا اختلط بعضها مع بعض كالبحر الأحمر مع المحيط أو غيره، فإن لكل بحر منها خواصه وتركيباته المختلفة عن تركيب البحر الآخر، وتشكل هذه الخصائص حاجزاً يمكن من خلالها تمييز كل بحر عن الآخر.^(٢)

وفيما ذكر من الحاجز دليل على أن القرآن لا يمكن أن يكون من عند النبي ﷺ، فإنه قد عاش عليه الصلاة والسلام في جزيرة العرب، بين مكة والمدينة، ولا يجري أي نهر من الأنهار في الجزيرة كلها، ولا ركب في حياته عليه الصلاة والسلام البحر، لينظر في خواصه ومصاب الأنهار فيه، فلا شك أن الذي علمه ذلك، وأخبره به هو الذي أنزل عليه القرآن وهو العليم الخبير.

٢- إخباره عن أشياء من المستقبل:

إن الزمان ثلاثة أحوال: ماض وحاضر ومستقبل، أما الماضي فعلمه ممكن من خلال دراسة التاريخ، وأما الحاضر فمعرفة مبنية على المشاهدة والسماع والمعايشة.
أما المستقبل فلا يمكن لأحد معرفته، إذ هو من علم الغيب، ولا يدري عنه أحد شيئاً إلا الله تعالى، أو من علمه الله جل وعلا.

وسنشير في اختصار إلى أشياء مما ذكر الله تعالى في القرآن من أمور المستقبل^(٣)، التي لا يعلمها إلا من علمه العليم الخبير .

(١) انظر: تفسير ابن جرير (٢٥/١٩)، تفسير ابن كثير (٣/٣٠٢).

(٢) انظر: مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم (ص ٢٠٧) .

أ- قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّمَّنْ مِثْلِهِ ۚ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ۝﴾ [البقرة]، فهذه الآيات صريحة في التحدي - وليس هذا فقط - ، بل قطعت بالعجز حتى عن المحاولة في الحاضر والمستقبل، وأنهم لا سبيل لهم إلى ذلك، وهذا الذي كان، فلم يعلم أن أحداً استطاع أن يأتي بسورة من مثل القرآن، ويصدق ذلك على أقصر سورة فيه، وهي الكوثر، وهي تتألف من عشر كلمات فقط، ولا يعني ذلك أن يزن أحد على وزنها عشر كلمات، كما كان يفعل مسيلمة الكذاب ، فيما قيل عنه إنه عارض سورة الفيل، فقال ((ألم تر كيف فعل ربك بالجبلى أخرج منها نسمة تسعى ما بين صفاق وحشا)).^(١)

فهذا كلام فارغ لا معنى له، وإنما عليه أن يأتي بالخبر الصادق، والتشريع الصحيح، والعلم النافع، وسائر ما يتصف به النص القرآني، ويكون ذلك في قالب من الكلمات بليغ، مؤثر في النفوس، آخذ بمجامع القلوب والألباب ، فأني لأحد من البشر ذلك.^(٢)

والمهم من ذلك كله أنه لم يعارض القرآن أحد معارضة صحيحة، ولم يتقدم إلى ذلك أحد على تعاقب الأيام والليالي، واستمرار الكفار وتتابعهم في العداء لهذا الدين، وابتغاء اندحاره، والاجتهاد في حربه بكل وسيلة ممكنة، ومع ذلك كله عجزوا عن أن يأتوا بمثل سورة من القرآن ، فمن أخبر النبي ﷺ ذلك ؟ ومن أعلمه به؟، ومن أين للنبي ﷺ أن يأتي بشيء لا يستطيعه الأولون ولا الآخرون؟!، هذا لا يمكن أن يكون إلا من الله العليم الحكيم.

ب- قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ﴾ [النور: ٥٥]،

وقد حقق الله لنبيه ﷺ وأصحابه وأمته من بعده ما وعد، ففتحت البلاد، ودخل الناس في دين الله، وتمكن الدين، وتبدل الخوف أمناً، وانتشر دين الله في الأرض، حتى بلغ في أقل من مائة سنة هجرية حدود فرنسا من الغرب، وحدود الصين من الشرق.^(٣)

(٣) من الدلائل على صدق الرسول ﷺ أيضاً أخبار الماضي والحاضر التي لا يعلمها من قبل ، ولكننا اقتصرنا على المستقبل طلباً للاختصار ، ولأن الاستدلال به أقوى من الاستدلال بالأخبار الماضية، أو الحاضرة ، وانظر في

ذلك : النبأ العظيم لعبدالله دراز (ص ٣٦) .

(١) انظر : إعجاز القرآن للباقلاي (ص ١٧٣) .

(٢) انظر : النبأ العظيم لعبدالله دراز، (ص ٨٠-١٠٦) .

فمن أين للنبي ﷺ علم ذلك؟، وما ذكرنا هنا هو غيض من فيض من الإعجاز في القرآن الكريم. ومن المهم هنا بيان أن المعلومات الموجودة في القرآن لا يمكن لبشر مهما أوتي من العلم أن يأتي بها بحال من الأحوال، حتى ولو توفرت له الأجهزة والآلات التي وجدت في العصر الحديث، وذلك لسبب واضح، وهو أنه لا يمكن للإنسان أن يحيط علماً بكل أنواع هذه العلوم المتنوعة الموجودة في القرآن، فالإنسان يمكن أن يكون فلكياً، ويمكن أن يكون عالماً بطبقات الأرض، ويمكن أن يكون مؤرخاً، ويمكن أن يكون طبيباً أو لغوياً، ونحو ذلك، لكنه لا يمكن أن يجمع هذه العلوم كلها. ومن المحقق أن الذين تحدثوا عن إعجاز القرآن، ونبهوا على ذلك هم ذوي مستويات عالية في تخصصاتهم، وكل تحدث في تخصصه، وإذا أراد أن يتحدث في تخصص آخر نقل عن من هو متخصص في هذا الشأن.

فمن هنا نقول إنه لا يمكن لبشر مهما بلغ من العلم أن يأتي بهذه المعلومات والمعارف المتنوعة ويسوقها بهذا السياق، الذي يهدف إلى تأسيس اليقين وتقوية الإيمان والإقبال على طاعة الرحمن، في سياق متسق، وهدف واضح لا يتغير، وكلام منضبط لا يختلف، ومعلومات محددة دقيقة لا تخطيء. إنه لا يمكن بحال من الأحوال كما قلنا لأهل الأرض أن يأتي بمثل هذا القرآن. وإنما هو كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۝ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝﴾ [فُصِّلَتْ].

المبحث السابع: إجماع الأمم على توحيد الربوبية.

البشر مجتمعون على ربوبية الله ﷻ إلا الملحدون منهم، والملحدون جلهم مكابر أو مقلد، وأما الجمهور الأعظم من البشر يقرون الله ﷻ بالربوبية وإن كان كثير منهم لا يقرون الله ﷻ بالوحدانية في العبادة فيشركون معه في العبادة.

أما الإقرار بربوبيته فإن العرب في الجاهلية وغيرهم يقرون الله ﷻ بالربوبية مع أنهم مشركون في العبادة، ومما يؤكد ذلك حكاية الله ﷻ عنهم وعن قبلهم كذلك:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَخَرَجَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ۝﴾ [الغَنَكُوت].

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝﴾ [الغَنَكُوت].

(٣) انظر كلام ابن كثير في تفسيره (٢٨٢/٣).

- فهذا إقرار بالربوبية، وكذلك غيرهم كما حكى الله ﷻ عن قوم عاد وثمود، في قوله: ﴿إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [فصلت: ١٤].

فهم هنا: يقرُّون بالربوبية ويجحدون الرسالة وتوحيد الله في العبادة، وهكذا سائر الأمم، يقول الباحث "أندري لانج" من علماء القرن الماضي: ((إن الناس في استراليا وأفريقيا والهند لم ينشأ اعتقادهم في الله العظيم على أساس من الاعتقاد المسيحي، وقد أكد هذا الرأي العالم الاسترالي "وليم سميث"؛ حيث ذكر في كتابه "أسس فكرة التوحيد" مجموعة من البراهين والأدلة جمعها من عدة مناطق واتجاهات تؤكد أن أول تعبد مارسه الإنسان كان تجاه الله الواحد العظيم)).

وأضاف على هذا الدكتور الحاج "أورانج كاي" من علماء الملايو في إندونيسيا: ((عندنا في بلاد أرخبيل الملايو دليل أكيد على أن أهل ديارنا هذه كانوا يعبدون الله الواحد!، وذلك قبل أن يدخل الإسلام إلى هذه الديار، وقبل أن تدخل النصرانية، وفي عقيدة جزيرة كلمنتان بإندونيسيا لوثة من الهندوسية ورائحة من الإسلام، مع أن التوحيد كعبادة لأهل هذه الديار كان هو الأصل قبل وصول الهندوسية أو الإسلام إليها.

وإذا رجعنا إلى اللغة الدارجة لأهل هذه الديار قبل استخدام اللغة السانسكريتية، أو قبل هجرة الهندوسية أو دخول الإسلام؛ تأكدنا من أن التصور الاعتقادي لأجدادنا حسب النطق والتعبير الموروث هو: أن الله في عقيدتهم واحد لا شريك له)). (١)

وروى ابن جرير الطبري عن ابن زيد (ت ١٨٢هـ) أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٣]: ((ليس أحد يعبد مع الله غيره إلا وهو مؤمن بالله، ويعرف أن الله ربه، وأن الله خالقه ورازقه وهو يشرك به؛ ألا ترى كيف قال إبراهيم: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ ١٥ أَنْتُمْ وَعَابَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ١٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ١٧﴾ [الشعراء: ١٧]؟، قد عرف أنهم يعبدون رب العالمين مع ما يعبدون، قال: فليس أحد يشرك به إلا وهو مؤمن به؛ ألا ترى كيف كانت العرب تلي تقول: "ليكن اللهم ليكن، ليكن لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك"؟ المشركون كانوا يقولون هذا)) (٢)

فهذه كلها أدلة نقلية وتاريخية تؤكد إجماع الأمم على الإقرار لله ﷻ بالربوبية وأنه المعبود، وإن كانت بعض الأمم قد وقعت في الشرك في العبادة كما كان مشركوا قريش يقرون بعبودية الله، ولكنهم يشركون

(١) كتاب التفكير الديني في العالم قبل الإسلام - الحاج أورانج كاي (ص ٢٨-٣٠) بتصرف.

(٢) تفسير الطبري (١٦ / ٢٨٩).

معه آلهة أخرى.

نتائج البحث:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين. وبعد:

فهذه أهم النتائج لهذا البحث وهي :

- ١- إن أدلة ربوبية الله ﷻ من الكثرة بحيث لا يمكن إحصاؤها بحال .
- ٢- إن أدلة الربوبية منتشرة في الكون، يراها ويستطيع ان يدركها العالم، بل كل عالم في فنه يدركها، ويدركها الجاهل والأمي.
- ٣- أدلة الربوبية قد ذكر الله ﷻ جزءا عظيما منها في القرآن الكريم؛ لتكون حجة على المعرض والملحد وزيادة إيمان وترسيخ في الحق للمؤمن.
- ٤- أدلة الربوبية التي ذكرها الله ﷻ في القرآن الكريم ليست للإقرار بالربوبية -وإن كان ذلك يحصل بها- وإنما المقصود بها لازمها وهو توحيد الألوهية والعبادة؛ لذا كثر في القرآن الكريم التعقيب عليها بإخلاص العبادة والنهي عن الشرك.

الفهارس مرتبة على حروف الهجاء.

القرآن الكريم.

الأجزاء الكونية بين النقل والعقل لعبدالعزیز بن خلف الخلف
إعجاز القرآن للباقلاني.

الإيمان بوجود الله بالدليل العقلي ورفض الأديان في عصر مؤسسي الماسونية الأوائل . ديفيد ويست.
بيان تلبیس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية لابن تيمية.

تاريخ بغداد للخطيب البغدادي.

تاريخ دمشق لابن عساكر .

تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة

التعريفات للجرجاني.

تفسير ابن كثير

تفسير السعدي

تفسير الطبري

تفسير القرطبي.

تفسير المنار محمد رشيد رضا.

التفكير الديني في العالم قبل الإسلام – الحاج أورانج كاي.

تهديب اللغة للأزهري.

جهود شيخ الإسلام ابن تيمية في تقرير توحيد الربوبية، د. عادل العامري.

الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية.

درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية.

روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار لمحمد بن قاسم الحنفي.

شرح ثلاثة الأصول لابن عثيمين.

شعب الإيمان للبيهقي .

شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والتعليل لابن القيم.

صحيح البخاري.

صحيح مسلم.

الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة لابن القيم.
فتح الباري لابن حجر .
الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم.
القاموس الفلسفي لفولتير .
القائد إلى تصحيح العقائد، لعبدالرحمن بن يحيى المعلمي .
القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم موريس بوكاي.
القسطاس المستقيم للغزالي.
الكشف عن مناهج الأدلة لابن رشد.
الكليات لابي البقاء الكفوي.
لسان العرب لابن منظور.
لوامع الأنوار البهية للسفاريني .
مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم.
مجموع الفتاوى لابن تيمية.
مدارج السالكين لابن القيم.
المعجم الوسيط لمجموعة من العلماء.
مفتاح دار السعادة لابن القيم.
مقاييس اللغة لابن فارس .
النبأ العظيم لعبدالله دراز.
النبوات لابن تيمية.
نقد العقل العملي أمانويل كانط .
النهاية في غريب الحديث لابن الأثير .